Journal of

STEPS

for Humanities and Social Sciences

Volume 1 | Issue 1

Article 3

The status of Arab urban centers in the geographical heritage

Amenah Hasan Niyazi

Wasit University, Iraq, aniyazi@uowasit.edu.iq

Follow this and additional works at: <https://www.steps-journal.com/jshss>

Part of the [Arts and Humanities Commons](#)

Recommended Citation

Niyazi, Amenah Hasan (2022) "The status of Arab urban centers in the geographical heritage," *Journal of STEPS for Humanities and Social Sciences*: Vol. 1 : Iss. 1 , Article 3.

Available at: <https://doi.org/10.55384/2790-4237.1006>

This Original Study is brought to you for free and open access by Journal of STEPS for Humanities and Social Sciences (STEPS). It has been accepted for inclusion in Journal of STEPS for Humanities and Social Sciences by an authorized editor of Journal of STEPS for Humanities and Social Sciences (STEPS).

اوضاع مراكز العمران العربية في التراث الجغرافي

د. امنة حسن نيازي*

المستخلص

يعد ظهور الإسلام من أكثر الأحداث البشرية أهمية في حياة البشر. وأشعل ثورة عمرانية أصبحت مركزاً مستقرراً لسكان شبه الجزيرة العربية ومن ثم امتد إلى بقية المناطق التي قيض الله للإسلام فيها أسباب الفتح وخصوصاً آسيا وأفريقيا وأوروبا. وصاحب ظهور هذه المراكز العمرانية تقدم عظيم في ميادين المعرفة الإنسانية. وقد أهتم الجغرافيون بدراسة مراكز العمران لأنها تكون مناطق حضرية بارزة. والغرض الرئيس من هذه الدراسة هو بيان اوضاع مراكز العمران العربية في تراثنا الجغرافي التي ساعدت على نمو أو اضمحلال مراكز العمران في المدن العربية القديمة. تعد الأغراض العسكرية والاقتصادية والصحية من المتغيرات الرئيسية التي ساهمت في نشوء المراكز العمرانية. اوضحت الدراسة بأن الكثير من المتغيرات التي ساعدت على نشوء المراكز العمرانية في المراحل الأولى قد فقدت وظيفتها وأنمحي كيانها في حين ظل الكثير منها ينعم بأزدهار أسواقها التجارية وتساعدت أهميتها بمرور الوقت. أن تتبع ما أصاب هذه المدن على مر الزمان لم يتطرق اليه الجغرافيون وادى هذا الى عدم التعرف على الكثير من الحقائق التي ادت الى ضمورها أو أزدهارها.

كلمات مفتاحية: مراكز العمران، التراث الجغرافي، فكر جغرافي.

* دكتورة، قسم الجغرافية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، العراق.

aniyazi@uowasit.edu.iq

The status of Arab urban centers in the geographical heritage

Dr. Amenah Hasan Niyazi, *Geography Department, College of Education for Human Sciences, Wasit University, Iraq.*

Abstract

The emergence of Islam is one of the most important human events in human life. It results in an urban revolution that became a center of stability for the inhabitants of the Arabian Peninsula and then spread to the rest of the regions, especially Asia, Africa, and Europe. The emergence of these urban centers was accompanied by great progress in the fields of human knowledge. Geographers have been interested in studying urban centers because they are prominent urban areas. Thus, the main purpose of this study is the formation of basic concepts that help in knowing the growth or decline of urban centers in the ancient Arab cities. The main purpose of this study is to clarify the conditions of Arab urban centers in our geographical heritage that helped the growth or decline of urban centers in ancient Arab cities. Military, economic, and health purposes are among the main variables that contributed to the emergence of urban centers. The study clarified that many of the variables that helped in the emergence of urban centers in the early stages have lost their role and erased their entity, while many of them continued to enjoy the prosperity of their commercial markets and their importance increased over time. The tracking of what happened to these cities over time was not followed by geographers and this led to the failure to identify many of the facts that led to their decrease or prosperity.

Keywords: urban centers, geographical heritage, geographical thought.

المقدمة

تزخر كتب التراث الجغرافي العربي بذكر الامكنة والبقاع في مختلف نواحي الارض وتتوسع معاجم اللغة في شرح معانيها وعلى الرغم من ذلك فإن الدراسات الجغرافية الحديثة اقتصرت على الاكثر من تحقيق هذا التراث ونشره او البحث في تفاصيل كتاب منها وقد يذهب بعضهم الى التعريف بجملة من الجغرافيين العرب ونقل مقتبسات من كتبهم [1]. تطلق كلمة العمران على مراكز التوطن ومنازل القرار ويندر استعمال هذه الكلمة في كتب الجغرافيا الحديثة لاسيما ما اصطلح على تسميته بجغرافية المدن او الحضر (Urban) رغم ان كلمة العمران اكثر شمولاً وادق دلالة فالعمران لغة: البنيان، اسم لما يعمر به، المكان وتحسن حاله من كثرة الاهالي ونجح الاعمال والتمدن [2]. والعمران اصطلاحاً هو الاجتماع البشري [3].

وبناء على هذه الحقيقة كانت ظواهر الماضي ولا زالت تعتبر مصدر معلومات له اهميته اذا ما استعملت بصورة صحيحة. ومن خلال ذلك تأتي اهمية مراجعة ظواهر العمران في كتب التراث والفكر الجغرافي والاطلاع على مواردها، بل أن التنمية القومية والاقتصادية تتطلب مثل هذا التتبع العلمي لان التحليل المكاني والتخطيط يمتزجان معاً اليوم مع الهندسة والتصميم لذا يهدف البحث الى بيان اوضاع مراكز العمران البشري التي ترد في تضاعيف كثير من كتب التراث الجغرافي العربي وتحليل العوامل التي توضح تباينها من مكان لآخر في ارجاء الدولة العربية الاسلامية. تم اتباع المنهج التحليلي الوصفي للوصول الى هدف البحث وقسم الى دراسة الانتشار المكاني لاوضاع مراكز العمران والجوانب التطبيقية لاوضاع مراكز العمران البصرة، الكوفة، الفسطاط، واسط، بغداد، القيروان، سرمن راي وبعدها الاستنتاجات. ويمكن القول ان هذه الدراسة لن تذهب الى الحديث عن جميع أوصاف مراكز العمران والاطناب في ذكر تفاصيل تخطيطها وتركيب بنيتها، وانما تحاول أن تبرز الجوانب الفكرية التي اعتمدها الجغرافيون العرب في معالجة موضوع العمران ووظائفها والشائج التي تربط بين وحدة نسيجها العام.

الانتشار المكاني لاوضاع مراكز العمران

جاهد العرب في سبيل نشر دين الله في الارض وخاضوا حروباً منظمة دفاعاً عن الامة وحماية لقيمها التي جاء بها الاسلام الحنيف واستطاعوا في غضون سنوات قلائل التخلص من ظلام الشرك وذل الظلم والاضطهاد. ولم يكد القرن الاول للهجرة يشرف على نهايته حتى كانوا قد بلغوا المحيط الاطلسي غرباً واعماق الصين شرقاً ونفذوا الى سويدا أوربا والى اعماق افريقيا جنوباً. ولم تكن الحرب، حتى في سبيل نصرة الاسلام، غاية يطلبونها بل أمراً يضطرون الى الخوض فيه بعد أن تستنفذ الدولة العربية جميع وسائلها السلمية في تبليغ الرسالة في أعداء وأنداراً [4]. والذي يقرأ التاريخ يجد ان الفتوح العربية الاسلامية جاءت في شكل موجات متلاحقة ترسم انتشاراً مكانياً في خطوات قصيرة تارة واخرى طويلة نسبياً و الانتشار المكاني (spatial Diffusion) هو ظاهرة جغرافية أهتم بها الباحثون في مراكز العمران الى درجة كبيرة حتى انهم افردوا لها مجلداً تضمن مجموعة من الدراسات النظرية والتطبيقية [5]. وعملية الانتشار المكاني تأتي على النحو الاتي :-

أ- **انتشار سار :-** ويتميز هذا النوع بانتشار الظاهرة بخطوات قصيرة وغالباً ما تكون بين وحدات مساحية متجاورة او تلك التي تعادلها في الاهمية.

ب- **انتشار رتبي :** وخطوات هذا الانتشار طويلة نسبياً من وحدات مساحية كبيرة الى وحدة صغيرة [6]. وقد تناول الباحثون ظواهر الانتشار المكاني في حقول الجغرافية الزراعية وجغرافية المدن وغيرها ويلاحظ من خريطة توزيع انتشار الاسلام في الشكل رقم (1) أن انتشار الدين الحنيف في مراحله الاولى كان انتشاراً سارياً متصلاً من البصرة الى طرابلس في الغرب ومرو في الشرق ويتضح هذا الامر من سنوات الفتح المتقاربة بين البصرة (17هـ) الى طرابلس (27هـ) الى حرات (23هـ) وبلخ (32هـ)، أما الانتشار الرتبي فيأتي في مراحل متأخرة عندما انتشر الدين الاسلامي

في رقعة واسعة من المعمورة وضرب بجرانه , عندما اتسعت رقعة الاسلام وبلغت الاندلس غرباً عام (133هـ) في العهد الاموي ومدينة كاشغر (الصين) وملتان (الهند شرقاً) وكان انتشار المسلمين يمتد عام (288هـ) في العهد العباسي الى سواحل البحر المتوسط الشمالية وجزره , مثل صقلية وكريت الى ارمينيا وخوارزم والجزء الشمالي الشرقي من شبه القارة الهندية [7]. وجاء ذلك وفقاً لحاجات الدولة من الناحية العسكرية والادارية والاقتصادية والسياسية . وجاءت حركة العمران مسيطرة لهذا الانتشار على النحو الاتي :-

- أ- بناء مراكز عمرانية جديدة مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقبروان وغيرها .
- ب- توسع مراكز عمرانية قديمة واطراد نموها مثل دمشق وحماة وبلعبك وجدة وسلا (في المغرب على الجهة المقابلة لمدينة الرباط الحديثة).

شكل رقم 1: أنتشار الإسلام حتى عام 41 هـ [1].

ولعل مما يتبادر الى الذهن هو السؤال الاتي: ماهي التغيرات التي اعتمدها العرب المسلمون لإنشاء المراكز العمرانية الجديدة ؟ وقد يجد الباحث فيما ذكره البلاذري عن هذا الامر مفتاحاً للإجابة على هذا السؤال اذ يقول: (أن عمر ابن الخطاب كتب الى سعد بن ابي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروناً وأن لا يجعل بينهم وبينه بحراً أن العرب بمنزلة الابل لا يصلحها الا ما يصلح الابل فترد لهم موضعاً عدناً ولا تجعل بيني وبينهم بحراً) [8].

ويتوسع ابن خلدون في شرح هذه المتغيرات في ضوء دراسته لتاريخ مراكز العمران التي اقامها العرب في مناطق الفتح الجديد اذ يقول فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن : (أعلم أن المدن قراراً يتخذها الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه , فتؤثر الدعة والسكون , وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار , ولما كان ذلك للقرار والمأوى , وجب أن يراعى فيه دفع المضار . بالحماية من طوارقها , وجلب المنافع , وتسهيل المرافق لها) ويذهب ابن خلدون الى التوسع في شرح هذه المتغيرات فيقول : (أن العرب أتخذوا الاسوار لحماية مدنهم أو اسواراً حول منازلهم . وأن يكون ذلك في مكاناً لا يسهل الوصول اليه أما على هضبة وعرة أو باستدارة بحراً أو نهراً حتى لا يمكن الوصول اليها الا بعد العبور على جسراً أو قنطرة

فيصعب منالها على العدو [3]. وفي هذا المجال نراه يؤكد على الجانب السوقي العسكري لا غراض الدفاع لا الحركة والهجوم .

كما ذكر اختيار الاماكن التي تتمتع بطيب الهواء للسلامة من الامراض ثم ينتقل ابن خلدون الى ما يتعلق بجلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أن يكون نهراً أو بازائها عيون عذبة ثرة مما يسهل على الساكن الحصول على حاجته من الماء , والى هذه الامور يضيف ابن خلدون طيب المراعي لاسائحة المكان ولا بد للمرعى ان يكون طيباً قريباً لأن ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من الشقة في بعده .

ولاحظ ابن خلدون أن العرب كانوا يراعون قرب المزارع من البلد بما في ذلك الشجر والحطب والبناء فالحطب ضرورة للسطلاء والطبخ والخشب ضروري لسقفهم . ولا يغرب عن باله ذكر قرب البلدان من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية . وقد ذكر ابن خلدون أمثلة على كل ما أورده ولكن هذه الامثلة ليس مما بناه العرب في مناطق الفتح الجديد في اغلب الاحوال [3].

يتبين مما سلف ذكره أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) قد أخذ بنظر الاعتبار أمرين أساسيين نظافة البيئة وخلوها مما يجنب الانسان العربي مضار التلوث من هواء راكد فاسد ومنافع متعفنة او مروج خبيثة . وهذه المضار ليس من الصحراء العربية شيء منها وهي في الوقت نفسه لا تخلو من مورد ماء ومرعى يوفر للعرب ما يقتات به وتعيش عليه سائحته , ولا يقتصر الامر على هذا البعد الاقتصادي والصحي وانما يذهب أمر الخليفة الى البعد السوقي العسكري . ولا عجب في ذلك فالقيادة السياسية العليا في الدولة الاسلامية هي التي تتولى قيادة كل ما يتصل بإدارة الحرب وتشرف اشرافاً مباشراً على العمليات العسكرية كافة تحقيقاً للنصر وحرصاً على دماء المسلمين .

وهذه عناية بارزة واهتمام كبير بكل ما بقي المسلمين شر عدوهم . اذ يذكر الطبري أن اول كتاب كتبه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حيث ولى ابي عبيدة على جند خالد: (لاتقدم المسلمين الى هلكه رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم , وتعلم كيف مأتاه , ولاتبعث سريةً ألا في كفٍ من الناس وأياك والقاء المسلمين في هلكه) [9].

الجوانب التطبيقية لوضع مراكز العمران

تتمثل الجوانب التطبيقية للاطر النظرية في مراكز العمران التي اقامها العرب في بدء عمليات الفتح ومنها البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر وغيرها .

البصرة

يقول البلاذري في تمصير البصرة : (أن عتبة بن غزوان لما نزل الخريبة كتب الى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله أياه فكتب اليه الخليفة (أجمع اصحابك في موضع واحد وليكن قريباً من الماء والمرعى ويكتب لي بصفته) فكتب اليه أني وجدت أرضاً كثيرة القصبة فقرأ الكتاب , قال : (هذه أرضٌ نظرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب) وكتب اليه أن انزلها وذلك في سنة أربع عشرة [8] . وقد تختلف الروايات في أصل تسمية المدينة السنة التي اسست فيها . ولكن المهم أن عتبة بن غزوان أبرز في جوابه للخليفة الاوضاع الاتية :-

أ- قربها من مناقع الماء.

ب- وقوعها على طرف البر.

ج - كثرة القصب والقض (الحجار الصغير)

وهذه شروط أساسية توفر للإنسان العربي طيب العيش ولأبله وفرة المريع وهذه من الأمور التي أكد عليها الخليفة لاختيار مواضع العرب وسائمتهم وإلى جانب هذه الحقائق فإن البصرة تتمتع بموقع سوقياً مهماً يرتبط بظهر الجزيرة العربية إذ يصل إليها الإمداد العسكري دون عائق وهي إضافة إلى ذلك تحتل موقعاً سوقياً على مشارف العدو الفارسي أصبح فيما بعد منطلقاً لحركات الفتح التالية في هذه الأنحاء . ويعطي موقعها , في الوقت نفسه مدلولاً سوقياً عسكرياً دلت عليه التعابير التي جاءت في هذه الكتب المتبادلة بين الخليفة وقائده مثل (على طرف البر) و (قريب من الريف) او (طرف الصحراء) [10].

الكوفة

تظهر المعالم الاقتصادية والسوقية العسكرية واضحة في اختيار موقع الكوفة إذ يقول البلاذري : (أن المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفان , وبعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصاء مع الطين والرمل) [8].

ويذهب الباحثون إلى شروح مختلفة لتفسير أصل الكلمة والمهم أن سعد بن أبي وقاص لما افتتح القادسية نزل المسلمون الأنبار , فاذا هم البق , فخرج فتراد لهم موضع الكوفة . وقال تكوفو في هذا الموضع , أي اجتمعوا . ويسمونها بعض القوم (خد العذراء) كما يذكر ياقوت [11]. وقيل إنها مصرت , أي اتخذت مدينة , بعد البصرة بعامين في سنة (19هـ) أو قيل سنة (18هـ) وقد وصف موقعها محمد بن عمير العطاردي : (الكوفة سفلة عن الشام وبانها ارتفعت عن البصرة وحرها , فهي برية مربعة إذ اتتنا الشمال ذهب مسيرة شهراً على الأقل على مثل رضراض الكافور , وإذا ذهب الجنوب رياح السواد وورده وياسمينه وأترجه ماءونا عذب وعيشنا خصب . وتختلف عن البصرة أنها شيدت في مكان لم يسبق إعمارها وكانت عبارة عن معسكر للجند ولذلك سميت (كوفة الجند) [12].

الفسطاط

تم بناء الفسطاط (مجتمع أهل الكوفة حوالي مسجد وجماعتهم) وفقاً لضرورات الفتح الإسلامي ومتطلبات الحفاظ على أمن الدولة شأنها في ذلك شأن البصرة والكوفة وعليه فإن العوامل السوقية والعسكرية كان لها دورها في اختيار موقعها بعد أن فتحت مصر عام (21هـ) كما رأى بعض المؤرخين وتم اختيار موقع الفسطاط عملاً بالقاعدة التي تمثلت باختيار موضع البصرة والكوفة وفي رواية أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قال لعمر بن العاص : (لا تنزل المسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهراً ولا بحر) [11].

وفي اختيار موضع الفسطاط تبرز المعايير السوقية العربية في اختيار مواضع مراكز عمرانهم حيث يكون الموضع على طرف البر متصلاً بالصحراء يتيسر فيه الحصول على الماء ويقرب فيه المريع والمحتطب . وعلى هذا الأساس أصبحت الفسطاط مركزاً جديداً من مراكز الإدارة السياسية العربية في مواضع الفتح الجديد . وتختلف الروايات في تاريخ تمصيرها إذ امتدت من (20هـ) إلى (22هـ).

واسط

لما استقرت أركان الدولة وقبض الله للعرب نشر دينه وكسر شوكة الكافرين التفت العرب إلى الجانب الإداري وأصبح هذا الأمر عاملاً من العوامل التي حملت العرب على بناء مدن تجمع بين الجانب السوقي العسكري وتتعداه إلى الناحية الإدارية ومثال ذلك مدينة واسط إذ اختلفت الآراء في أصل تسمية هذه المدينة , يشير المقدسي إلى أصل تسميتها فيقول : (وسميت واسط لأن منها إلى بغداد أو إلى الكوفة أو إلى البصرة أو إلى حلوان أو إلى الأحواز خمسين خمسين فرسخاً , وليس وسط العراق وإنما وسطه دير العاقول) [13]. وتقوم في موضع دير العاقول حالياً مدينة الصويرة . ويتحدث ابن حوقل عنها قائلاً : (ومدينة واسط على جانبي دجلة تشقها بنصفين وهي مدينة محدثة في الإسلام أستحدثها الحجاج بن يوسف , وبها حضر الحجاز , وهي مدينة تحيط بحدّها الغربي البادية بعد مزارع يسيرة , وهي خصبة كثيرة الشجر والنخل والزرع) [14]. وقد بنيت في الربع الأخير من القرن الأول الهجري ويذكر ياقوت الحموي قصة اختيار

موقع مدينة واسط قائلاً: (إن الحجاج قال لرجل ممن يثق بعقله: أمض وابتغ لي موضعاً في كرش الارض ابني فيه مدينة ليكن على نهر جار , فاقبل متلمساً ذلك حتى صار الى قرية فوق واسط بيسير يقال لها (واسط القصب) فبات بها واستطاب ليلها واستعذب انهارها واستمرأ طعامها وشرابها فقال :كم بين هذا الموضع والكوفة ؟ فقيل له اربعون فرسخاً , فقال فالى المدائن ؟ قالوا : اربعون فرسخاً , قال فللبصرة قالوا اربعون فرسخاً فقال : هذا موضع متوسط . فكتب الى الحجاج بالخبر ومدح له الموضع ولما فرغ الحجاج من بناء واسط سنة (86هـ) كتب الى الخليفة عبد الملك بن مروان : اني اتخذت مدينة في كرش الارض بين الجبل والمصريين (البصرة والكوفة) وسميتها واسطاً وقال الاصمعي: وجه الحجاج الاطباء ليختاروا له موضعاً حتى يبني فيه مدينة فذهبوا يطلبون ما بين عين تمر الى البحر وحولوا العراق ورجعوا وقالوا : ما اصبنا مكاناً أوفق من موضعك هذا في خفوف الريح وانف البرية) [11]. ويصف الاصطخري مزايا موضعها من الناحية المناخية فيقول :وهي أصح هواء من البصرة وليس لها بطائح [15].

بغداد

أختلف الباحثون في اصل اسم بغداد فقد قال البكري :بغداد فيها أربع لغات بدالين مهملتين , وبغداد معجمة الاخيرة ,وبغدان بالنون , ومغدان بالميم بدلاً من الباء ,تذكر وتؤنث . قال ابو حاتم :سألت الاصمعي كيف يقال :بغداد , او بغذاذ , او بغدان , أو بغدين ؟ فقال قل مدينة السلام , وابغضه الي بغذاذ , بالذال المنقوطة [12]. وذكر الخطيب البغدادي :سماها ابو جعفر مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام . وقال عبد الله بن المبارك :لايقال بغذاذ بالذال فان (بغ) شيطان و(داد) عطيته , وانها شرك . ولكنها تقول بغداد , وبغدان كما تقول العرب .. وكان الاصمعي لايقول بغداد وينهى عن ذلك ويقول مدينة السلام . وقال ابو بكر الانباري : وبغداد في جميع اللغات تذكر وتؤنث فيقال هذه بغدان وهذه بغداد [16].

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين بأن اصل التسمية يرجع الى البابلية (بعل جاد) بمعنى معسكر الالهة بعل وبمعنى معسكر الجيش البابلي . ويرى بعضهم أن أصل الكلمة كلداني مأخوذ من كلمة (بلداد)وهي اسم اله من الالهة الكلدانية .ويذهب اخر الى أن اصل الكلمة آرامي ويقصد بها بيت الغنم [17]. فالسلام هو الله وبذلك تكون مدينة الله [16]. حظيت مدينة بغداد بعناية فائقة من ناحية اختيار موضعها لم تسبق أن نالته مدينة مستحدثة في الاسلام قبلها ,فقد نقل من الحسن بن عثمان الواعر قوله : (بنى المنصور دار السلام او المدينة المدورة على الشاطئ الغربي من دجلة لتكون عاصمة سنة (145هـ) واكمل بناءها سنة (149هـ) وكان بناءها يمتد على مساحة 130 جريباً وثلاثين جريباً لسورها وخنادقها) [18]. وذكر عن اسحاق بن ابراهيم عن ابيه قال لما اراد المنصور بناء مدينة بغداد شاور اصحابه [9].

ويقول الخطيب البغدادي سماها ابو جعفر مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام [16]. ويقول الطبري : (لما اراد أن يبني مدينته خرج بنفسه يرتاد لها موضعاً يتخذ مسكناً له ولجنده ويبنتي به مدينة فبدأ منحدر الى (جرجرايا) (الصويرة) ثم صار الى بغداد ثم مضى الى الموصل ثم عاد الى بغداد فقال هذا موضع معسكر صالح , هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ,ياتينا منها كل مافي البحر وتاتينا الميرة من الجزيرة وأرمينيا , وما حول ذلك والفرات يجيء فيه كل شيء , من الشام والرقعة وما حول ذلك . فنزل وضرب عسكره على الصراة وخط المدينة .ويستمر بقوله أن المنصور كان يريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقتهم لي ولا تغلو عليهم الاسعار ولا تشدد فيه المؤنة فأني أن اقامت في موضعاً لا يجلب اليه من البر والبحر شيء غلت الاسعار وقلت المادة واشتدت المؤنة وشق ذلك على الناس) [9]. واختار موضعاً بين أنهاراً لا يصل فيه العدو الاعلى جسراً او قنطرة فاذا قطع الجسر وخربت القناطر لم يصل اليها العدو [9].

ويقع هذا المكان في منطقة تقترب فيها دجلة والفرات من بعضهما الى حد أن المسافة الفاصلة بينهما تبلغ الى جنوب الفلوجة بقليل (20 ميلاً) ولكن يلاحظ أن مستوى وادي الفرات المحصور بين الفلوجة والديوانية

يعلو عن مستوى القسم المقابل من وادي دجلة الممتد بين بغداد والكوت فبينما يبلغ الارتفاع في الفلوجة (40م) فوق مستوى سطح البحر ينخفض الى حوالي (34م) [19].

ويتحكم الانحدار الجانبي لسطح الارض بشبكة المياه المتفرعة من الفرات اذ تنصرف مياه هذا النهر في المنطقة المحصورة بين الفلوجة والديوانية نحو وادي دجلة . وهذه ظاهرة معروفة ورد ذكرها في كتب التراث .

وقد ذكر اليعقوبي : (ما كان من دجلة الشرقي فشربه من دجلة وما كان من دجلة الغربي فشربه من الفرات تأتي مياه من نهر يقال له الملك , ياخذ من الفرات [20]. ويذكر المقدسي وهو يتحدث عن بغداد : (وانهار الفرات تغلب في دجلة في جنوبها وما حاذى المدينة وشمالها دجلة وحسب) [13]. ويقول ابن حوقل : (مدينة السلام مدينة محدثة في الاسلام , ابتناها أبو جعفر المنصور في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمي معسكر المهدي . ويسمى الجانب الشرقي منها جانب باب الطاق وجانب الرصافة ويسمى معسكر المهدي ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ) [14].

وبنيت المدينة المدورة لئلا يكون الملك اذا نزل وسطها الى موضع منها اقرب منه الى موضع اخر وجعل ابوابها اربعة على تدبير العساكر في الحروب وعمل لها سورين , فالسور الداخلي اطول من السور الخارجي وبنى قصر في وسطها والمسجد الجامع حول القصر [9].

ونقل الخطيب البغدادي قول محمد بن خلف : (وبنى المنصور مدينته وبنى لها اربعة ابواب , فاذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة , واذا جاء من المغرب دخل من باب الشام , واذا جاء أحد من الاهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة , واذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان) [16].

وذكر الخطيب قول وكيع : (أن ابا جعفر بنى المدينة مدورة لان المدورة لها معان سوى المربعة , وذلك أن المربعة اذا كان الملك في وسطها كان بعضها اقرب اليه من بعض , والمدور من حيث قسم كان مستويا لما يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا , وبنى لها اربعة ابواب , وعمل عليها الخنادق وعمل لها سورين وفصيلين بين كل بابين فصيلان , و السور الداخل أطول من الخارج . وأمر ان لا يسكن تحت السور الطويل الداخل أحد ولا يبني منزلاً , وأمر أن يبني في الفصيل الثاني مع السور النازل لأنه أحسن للسور , ثم بنى القصر والمسجد الجامع [16].

وذكر الطبري : أن أحد الدهقات أشار مبيناً للمنصور مما سن موضع بغداد من الناحية الاقتصادية والعسكرية فقال: (وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله وأنت قريب من البر والبحر والجبل . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيء كالميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة وتجيء كالميرة من أرمينيا وما أتصل بها في تأمرا (ديالى) حتى تصل الى الزاب وتجيء كالميرة من الروم وأمد الجزيرة والموصل في دجلة وأنت بين أنهاراً لا يصل اليك عدوك وأنت بين دجلة والفرات لا يجئك أحد من المشرق والمغرب الا اذا احتاج الى العبور وانت متوسط بين البصرة وواسط والموصل والسواد كله وانت قريب من البر والبحر والجبل) [9].

وكانت تنحدر من الفرات مجموعة من الانهار تسير بها السفن وتسقي الارض وهي نهر عيسى الذي يحتله او يشغله جدول الصقلاوية حالياً ونهر صرصر وهو جدول ابو غريب حالياً ونهر الملك الذي يتتبع أمتداده في الوقت الحاضر القسم الاعلى من قناة الرضوانية والقسم الاوسط والادنى من جدول اليوسفية [19]. ونهر كوئي ويتبع الجزء الاوسط من المسيب مجرى هذا النهر القديم , وتعرف بقايا هذا المجرى القديم بأسم (بجبل أبراهيم) [21]. وهكذا تتفق اقوال ما ذكره المؤرخون عن اهمية موضع بغداد بالنسبة لجوانب الحياة المختلفة وفطنوا الى اهمية شكلها الدائري , فهذا الشكل من الناحية الهندسية يتميز بسعة مساحته

وقصر محيطه وهذا يجعل أمر الدفاع عن المدينة ميسوراً بأقل عدد من الجند وأن موقع الحاكم من وسطها يبعد بمسافات متساوية عن اطرافها , ويذكر الخطيب البغدادي : (بأن موضع بغداد كان عبارة عن مزرعة لجماعة من البغداديين وكان يطلق عليها اسم المباركة حيث يسكنها حوالي ستون شخصاً من النصاري [16].

وكثيراً ما يغفل الباحثون عن ذكر عامل مهم من عوامل نقل العاصمة من الشام الى العراق فالشام قاعدة الحكم الاموي الذي انتهى بظهور الدولة الجديدة ولانزال فيها قلوب الناس مع الحكام السابقين فضلاً عن ان الشام لا تبعد عن البحر الا سبعين ميلاً مما يضعها على تخوم الروم وهم الأعداء الذين لا ينفكون عن محاربة دولة الاسلام ولذلك فأن البقاء في الشام يتطلب قوة بحرية ضاربة تحمي سواحل ارض الشام . أن تغير موقع العاصمة له أهميته من الناحية السياسية أذ يعكس تغيراً في خصائص الدولة [22].

القيروان

ذكر ياقوت الحموي قول الازهري: (القيروان معرب) وقد تكلمت به العرب قديماً, القيروان مدينة عظيمة بافريقيا وليس بالغرب مدينة اجل منها مصرت في الاسلام على يد عقبة بن نافع حيث اختار مدينة يسكنها المسلمون على طرف البر وهي أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك اشجارها , وقال: (أنما اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقه مراكب الروم فتهلكها وهي في وسط البلاد) استقامت في سنة (55هـ) بعد أن اختط داراً للامارة واختط الناس حوله واختط جامعها [11]. أما المقدسي فيتحدث عن تفاصيل كثيرة عن المدينة تتناول شأنها وتخطيطها وانواع البناء فيها اذ يقول: (القيروان مصر الاقليم بهي عظيم وهي مفخرة المغرب ومركز السلطان واحد الاركان وأن ماءوهم ضعيف , الماء مخزون في مواجين (الموج ما علا من سطح الماء وتتابع , ومواجين كالخزانات لخرن المياه) او مواجير وصهاريج بلا سور يجتمع فيها ماء المطر وقد أجرى لهم المعزة قناة من الجبل تملأ المواجين بعد ما تدخل قصره بصبرة , بنيانهم مدر (الطين) وأجر ومواجين الزيت فيها كثيرة , الجامع بموضع يسمى السماط الكبير وسط الاسواق في سرية البلد وله سبعة ابواب ودروبها خمسة عشر) [13]. وتكرر في موضعها انها على طرف البر وطرف الصحراء لا يفصل بينها وبين الخلافة لا نهر ولا بحر .

سر من رأى

بضم أوله وثانيه. السر عند العرب السرور بعينه , فمعنى هذا الاسم سرور من رأى [12]. ويقول ياقوت عنها :مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة . وقال أبو سعد :سامراء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء بناها المعتصم ونزلها في سنة (22هـ) وكان الرشيد حفر نهراً عندها سماه القاطول وأتى الجند وبني عندها قصرأ [11]. ويذكر ابن حوقل : (استحدثها أبو اسحق المعتصم بن هارون الرشيد سنة (220هـ) , طولها سبعة فراسخ على شرقي دجلة وكان شرب أهلها منها وتتميز بطيب الهواء والثمار ولها نخيل وغللات تحمل الى مدينة السلام) [14].

ويتحدث المقدسي فيقول : (وكانت عجيبة حسنة حتى سميت (سرور من رأى) . وتمتد بساكنيها على الجانب الغربي من دجلة) [13]. ويتضح من هذه الاوصاف أن البيئة الصحية الملائمة لحياة الانسان والموقع على نهر دجلة حيث تسهل حركة النقل , وخصب الارض كلها عوامل مهمة في اختيار موقع المدينة . وقد استخلص ابن خلدون من دراسته تاريخ العمران العربي الاوضاع التي يجب مراعاتها في اوضاع المدن وماذا يحدث اذا اغفل ذلك عن المراعاة واكد على الجوانب الاساسية الاتية :

- أ- العامل الاقتصادي تقضي الضرورة ان تكون المدن قريبة من الماء والمرعى والمحتطب .
- ب- العامل العسكري الذي يراعي ظروف المكان وامكاناته للدفاع عن النفس ودرئ اخطار المعتدين.
- ت- العامل الصحي الذي يراعي طيب الهواء والحماية من الافات .

ومن هذا يتبين ان بعض ما عرضه ابن خلدون يساير القواعد الاساسية التي اعتمدها العرب في اختيار أماكن عمرانهم ومدنهم حيث الماء والمرعى والمحتطب وطيب الهواء. وأشار الى امكانات الدفاع ودفع عدوان المعتدين الا انه لم يشر الى القاعدة السوقية الاساسية التي اكد عليها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في اختيار منزل ليس فيه نهر او بحر بين مراكز الخلافة بين المسلمين. وكان شرط اختيار موقع قريب من المرعى والمحتطب يعكس حقيقة اقتصادية مهمة هي ان العلف والحطب مواد كبيرة الحجم رخيصة الثمن لا يمكن نقلها بكلفة اقتصادية من مساحة بعيدة في وقت كانت الدواب هي واسطة النقل الوحيدة المتيسرة، فرحلة الذهاب والاياب اليومية باستخدام هذه الوسيلة لاتزيد على ستة كيلومترات ذهاباً واياباً وعليه لا بد من اختزال هذه الكلفة الى حدها الأدنى ومجاورة الارض التي توجد فيها هذه المواد.

وزاد على ما تقدم أن العرب كانوا يتركون سائماتهم ترعى حيث ما تشاء في الارض القريبة منهم ولم تكن تربية الحيوان آنذاك تعرف طريقها الى حضيرة توجد فيها حاجتها من علف وماء.

وهكذا ظل المجتمع العربي الجديد يحتفظ بكثير من سبل عيشه وطرق كسب معاشه، مجتمع يجمع بين الاستقرار في أماكن محددة ومجتمع بقيت وسائل كسب العيش تحتفظ بطابعها الرعوي وهو طابع يحمل صفات طابع البداوة.

واذا اتجهنا الى مناطق الفتح من الجهة الشرقية نجد أن العامل السوقي العسكري يأخذ اهمية سياسية أيضاً في اختيار مواقع العمران ومنازل القرار فالحيلولة دون قيام تعاون هندي فارسي حمل العرب على انشاء مدينة المنصورة في موقع سوقي يقطع الاتصال بين هذين العدوين. وهذه المدينة من مدن السند بناها منصور بن جمهور عامل بني امية وقيل سميت المنصورة لأن عمر بن حفص المهلبى بناها في أيام المنصور من خلفاء بني العباس فسميت باسمه [11].

ويرى بعض المؤرخين أن تاريخ تأسيسها يرجع الى العهد الاموي وفترة ولاية الحجاج الثقفي عندما عهد الى محمد بن القاسم الثقفي فتح بلاد السند [10]. وتقع هذه المدينة اليوم الى شمال مدينة كراتشي الباكستانية بمسافة قليلة، وهي قسبة السند ومصر الاقليم وكان بناؤهم من خشب وطين، والجامع من حجر وأجر كبير، لها أربعة ابواب باب البحر وباب طوران وباب سندان وباب الملتان ولهم نهر يحوط بالبلد والجامع وسط الاسواق وسكانها يعملون بالتجارة [13].

ومثال ذلك أيضاً مدينة قم التي تحتل موقعاً سوقياً وسطاً في الهضبة الايرانية فقد ذكر ياقوت الحموي: (انها مدينة مستحدثة اسلامية لاثار للاعاجم فيها واول من مصرها طلحة ابن الاحوص الاشعري وقد فتحها الاحنف بن قيس سنة (23هـ) ثم تحولت هذه مدينة ويذكر أيضاً تمصيرها في ايام الحجاج بن يوسف سنة (83هـ) وقال الاصطخري: (قم مدينة ليس عليها سور وهي خصبة ماءهم من الابار) [11]. أن هذه المتغيرات والأوضاع لاتزال الى حد بعيد قائمة الى يومنا هذا في اختيار مراكز العمران والمدن الجديدة او العمل على تطوير امكاناتها ونموها وازدهارها. ونلاحظ ذلك واضحاً في مواضع مراكز العمران في البلاد العربية والعراق على وجه الخصوص. فعواصم العرب ومدنهم الرئيسية في كثير من الاقطار لاتزال تمتد على الساحل ابتداءً من نواكشوط (موريتانيا) الى الرباط والجزائر وتونس وبيروت وجدة والشام ومسقط ومدن الخليج العربي الاخرى اي ان دراسة هذه المواضع والتعمق في تفاصيلها له فائدته في اختيار مواضع المدن والتعمق في تفاصيل تخطيطها.

الاستنتاجات

أ- تزخر كتب الادب الجغرافي العربي بذكر المدن والحوضر التي أخطتها العرب واستقروا بها. وتتوسع كتب التاريخ في شرح كثير من تفاصيل خططها وحياة الناس فيها. في حين تذهب مصنفات اللغة والادب الى ايضاح معاني تسمياتها ودلالاتها. وقد درست رسوم ومعاليم بعض هذه المراكز العمرانية ولم يبق منها سوى إطلال تتناقل الكتب تاريخ بنائها ويرددون حكاياتهم. أما الكثرة الكاثرة

من هذه المراكز فقد واصلت مسيرة نموها وتطورها واصبحت ظواهر ماضية جزءاً من نسيج حاضرها. ولقد اهتم طلاب الجغرافيا في السنين الاخيرة بدراسة ظواهر المراكز العمرانية الحاضرة وفقاً لما جاء في الدراسات الحديثة.

ب- ان دراسة المدن العربية والرجوع إلى اوائل نشأتها يكشف عن جوانب فكرية واجتماعية واقتصادية تتداخل في بناء المدينة. ومما يلفت النظر ان هذا الابداع والاصالة في بناء المدينة العربية ومقوماتها تمت على ايدي اناس الفوا سكن البوادي وعاشوا بها حياة ارتحال وانتقال من وقت لآخر. وكان بناء مراكز العمران هذه ينطلق من فكر منهجي نير رسم ابعاد حياة عاشها الناس وتمتعوا بأفضالها ومحاسنها، وهكذا تصبح الاحاطة بماضي المدينة العربية ونشأتها ومعرفة تفاصيل وظائفها ضرورة علمية لا بد منها في أي مشروع يتناول دراسات المدن وتخطيطها

ت- ان للفتوحات الاسلامية دور كبير في تحديد الانتشار المكاني (انتشار سار وانتشار رتبي) لاوزاع مراكز العمران اذ اهتموا بها كظاهرة بشرية وافردوا لها مجلداً تضمن مجموعة من الدراسات النظرية والتطبيقية .

ث- أخذ العرب بنظر الاعتبار في اختيار مواقع مدنهم وحواضرهم اموراً اساسية اهمها: البعد السوقي لموقع المدينة وظروف البيئة الصحية وغناها الاقتصادي وينطبق هذا القول على المدن الاولى التي بنيت على ارض العراق مثل البصرة والكوفة التي تشارف ارض العدو من ناحية وتتميز ببيئة صحراوية صحية ولها ظهير اقتصادي واسع يصل إلى ابعاد الجزيرة العربية. ومثل هذه المعايير طبقت في اختيار موقع واسط والفسطاط والقيروان ومن ثم بغداد.

ج- ان دراسة التراث الجغرافي العربي تضع الباحث امام ينابيع ثرة من المعرفة الجغرافية لغة ومادة وفكراً ومنهجاً. فقد كتب بلغة عربية فصحة قل ان نجد لها نظيراً في كتاب جغرافي حديث. وحوى من الالفاظ والمصطلحات ما لا يجشم القارئ تعب البحث عن معاني كلمات اجنبية تعترضه. فكثير من اوضاع مراكز العمران لا نجد لها ذكراً في كتب جغرافية العمران او المدن .

المصادر

1. شاكر خصباك, كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي, مطبعة دار السلام, بغداد, 1979.
2. لويس معلوف , المنجد في اللغة , المطبعة الكاثوليكية , بيروت, ط 19, 1966 , ص529.
3. عبد الرحمن ابن خلدون, (ت, 808هـ) , المقدمة, كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر , دار الشعب , القاهرة , بلا سنة , ص33.
4. د. علي محمد المياح, وصايا الحرب في التراث, دار الحرية للطباعة, بغداد, 1986, ص12.
5. أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري, (ت/279هـ), فتوح البلدان, دار مكتبة الهلال بيروت, ط1, 1984, ص27.
6. محمد بن جرير, الطبري, (ت, 310هـ), تاريخ الامم والملوك, القاموس الحديث للطباعة والنشر, بيروت, ج4, سنة 50.
7. عبد الجبار ناجي, دراسات في تاريخ المدن العربية الاسلامية, مصدر سابق, ص157.
8. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي, (ت/626هـ) , معجم البلدان , دار صادر, بيروت, ج4 بلا سنة , ص325.
9. بو عبيد البكري, (ت/487هـ) , معجم ما استعجم عن اسماء المواضع والبلاد , حققه وطبعه مصطفى السقا , مطبعة لجنة التأليف والنشر , القاهرة , ط1 , ج2 , 1945 , ص1141-1142 . *الفسطاط: كما يقال بيتاً من أدم أو شعر وهو ايضاً مجتمع اهل الكورة حوالي مسجد وجماعتهم.
10. شمس الدين ابو عبد الله عمر بن احمد بن ابي بكر البناء الشامي البشاري , المعروف بالمقدسي , (ت/380هـ) , احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم , مكتبة مدبولي , ط3, القاهرة , 1991م, ص135 .
11. أبو القاسم, محمد بن علي الموصلي المشهور بابن حوقل (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري), صورة الارض, دار مكتبة الحياة, بيروت, 1979, ص214.

12. ابو اسحق، ابراهيم بن محمد الاصطخري المعروف بالكرخي، (ت حوالي 350 هـ) مسالك الممالك مطبعة بريل، ليدن، 1965، ص 82.
13. الحافظ، ابو ابو بكر بن علي الخطيب البغدادي، ت 463 هـ، تاريخ بغداد مدينة السلام، القاهرة، 1931 م.
14. مصطفى جواد واحمد سوسة، دليل خارطة بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1985، ص 18-19.
15. يعقوب لسنر، خطط بغداد في العهود العباسية الاولى، ترجمة صالح احمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1984، ص 61.
16. ابراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق، مطبعة شفيق، بغداد، ج 1، 1962، ص 43.
17. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، الكاتب المعروف باليعقوبي، (ت 284 هـ) كتاب البلدان، مطبعة ابريل ليدن، 1891، ص 321.
18. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات، دار البيان، بغداد، 1974، ص 48.
19. Lawrence A. Brown, Guest Editor, Studies in spatial Diffusion Process Empirical Economic Geography, Clark University Worcester, Mass. Vol. 50 No. 4. 1974.
20. Jui -cheng Huang and Peter Gould, Diffusion in Urban Hierarchy. Economic Geography, Vol. 50, No.4, 1970 pp. -300-340.
21. William C. Brice, Atlas of Islam, op. Cit, pp6-8 William C. Brice, Editor, An Historical Atlas of Islam, Edinburgh, John Bartholome, P.6, 1981.
22. Van Valken burg and Carll, Stotz, Elements of political, Geography, prentice -Hall Inc., New York, 1954, p.62.